خطبة : قصة سليمان عليه السلام والهدهد

الخطيب: يحيى سليمان العقيلي

معاشر المؤمنين

قصَصُ القران فيها عظةٌ وعبرة ، قال تعالى " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111 يوسف)

فهي أحداثٌ وقعت ، ومواقفٌ حدثت ، ليست خيالا ولا أدبا مجردا للتسلية والاستمتاع .

ومن القصَص القرآني قصةُ نبي الله سليمان عليه السلام والهدهد ، والتي جمعت بين الأعاحيب والعبر والدروس وروعة البيان القراني .

تبدأ القصة عباد الله بتفقّدِ سليمان عليه السلام لجنده من الطير ، بعد أن حشر الله تعالى له جنودا من الإنس والجن والطير في مملكته في الأرض المقدسة في فلسطين ، فقد جمع الله تعالى له بين الملك والنبوة كما جمعها لأبيه داود عليهما السلام ، بل وآتاه ملكا ماأُعطي لأحد من البشر ،

وتبدأ القصة بإستعراضه عليه السلام لجنده وأتباعه " وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20)

فيها عبرةٌ لكل حاكمٍ ومسؤول أن يستشعر مسؤوليته عمّن ولّاه الله تعالى أمرهم بالتفقد والنظر ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [متفق عليه].

ثم قال عليه السلام " لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21)

وهذا مقتضى العدلِ والحكمة ،فعلى الرغمِ من وضوحِ الخطأ من الهدهد ، حيث لم يبلّغ سيده بغيابه ، إلا أنَّ العدلَ كان حاكما للغضب الذي إعترى نبّيَ الله سليمان ، حيث فتح للهدهد بابا للبراءة بقوله " أوليأتيّني بسلطان مبين "

والعدل مبدأٌ عظيم وسلوكٌ قويم ، لو طبّقه كل أحد لساد الوئام والأمن في المجتمع ، ويتجلّى العدلُ هنا في تمّهل سليمان عليه السلام عن الحكم على الهدهد حتى يستمع لعذره وسبب تغيبِه ، فكم أضاعت العجلة حقوقا وسببّت ظلما وقطعت صلات وأرحاما .

ويصل الهدهدُ الى مجلس سليمان ، ويبادره بكل جراةٍ وشجاعةٍ وثقةٍ بالنفس "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

لقد علمتُ بأمرٍ جلل لم تعلمه أنت ، أُخبركَ به بيقين ، وليس بالظن والأقاويل ، وهذا هو السلوك القويم لبطانة الحاكم وأي مسؤول ، النصحُ الصادقُ والخبرُ اليقين ، وليست الشبهات والاشاعات والأقاويل ، وهذه هي النصيحة التي أرشدنا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " (مسلم)

فما الذي رآه الهدهد في سبأ ، التي تبعد عن فلسطبن الاف الأميال ؟ وماالخبر اليقين الذي واجه به سليمان ؟ لقد قال له " إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ "

عجيبةٌ هي همّة هذا الطائر الصغير ،

وعحيبة جدا غيرته الإيمانية تلك ،

أزعجه أن يرى أولئك البشر يسجدون لغير الله،

وعجيب ذكاءُه ودِقةُ وصفه للمشهد ،

فقد وصف الحاكمَ بأنه إمرأة ، وأنّ ملكَها واسع ، وأنّ لها عرش عظيم ،

وليس هذا ماأهمّه إنمّا الذي أثاره وأغضبه هو سجودهم للشمس من دون الله " أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25)اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (26)

عبرةٌ وعظةٌ عميقةُ الأثر فيما ينبغي ان يكون عليه المسلم ، أن يكون علّوُ دينِ الله تعالى ، ورفعُ رايةِ لا إله إلا الله همّهُ الأول وغايتُه العظمى ، لو إنشغل المسلمون اليوم بهذه الغاية لتوحدت صفوفهم ولعلت رايتهم وارتفع شأنهم بين الأمم .

معاشر المؤمنين

ونتابع أحداثَ القصة ، ولنستمع لما قال سليمانُ عليه السلام بعد إستماعه لهذا الخبر " ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27)

والتحرّي والتثبّتُ هو سبيلُ الحكمةِ والحُكمِ الرشيد ، لاسيمّا في الظروف الحساسة والأوضاع الأمنية ، وحدّد عليه السلام أسلوبَ التثبت " اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

عندها قام الهدهدُ بمهمته الجديدة بدقةٍ وعناية ، وأوصل الرسالةَ الى بلقيس ملكةِ سبأ التي قالت بعد أن ألقَى بالرسالة عليها مباشرة، وهذا من أمانته ودقته في تنفيذ مهمته :

" قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (30)أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

وفقنا الله لمايحب ويرضى ، وأعاننا على البّر والتقوى ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم .

معاشر المؤمنين

وتتابعت أحداث القصة ، حتى قدمت بلقيسُ لسليمان خاضعةً منقادةً لحكمه، ثم قام عليه السلام بإختبار رجاحةِ عقلها بإحداث تغييرات على عرشها الذي أحضره أحدُ جلسائه من الإنس ، والذي تفوّق على العفريت الجنّي بما آتاه الله من العلم فأحضره بلحظة ، فسألها " أهكذا عرشك " فردت بذكاء وحنكة " كأنه هو " فما جزمت وما رفضت ، ثم بينّ القران أن بيئتها الكافرة كانت هي السبب في صدّها عن عبادة الله "وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

وفي خاتمة القصة وبعد أن رأت بلقيسُ عظمةَ الملكِ وأنوارَ النبوة أسلمت مع سليمان لله رب العالمين "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ،،

الخضوعُ للحق والإنقيادُ له سمةُ العقلاءِ والحكماء ، لاتتحكم فيهم الأهواء ولاالنزعات ولاالشهوات ، بل إنقيادٌ واستسلامٌ لله رب العالمين ،كما فعل سحرةُ فرعون حين رأوا آية النبّوة ظاهرة بينّة خرّوا سجّدا لله رب العالمين " فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46)قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47)رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (48)(الشعراء) وهكذا هي علامة الإيمان ودلالته " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (36)